مجلة حوليات التراث
ADP
REVUE ANNALES DU PATRIMOINE
ISSN 1112-5020

بناء الإنسان في الفكر الصوفي الإسلامي
Human building in mystic thought

محمد سعيدي
جامعة مستغانم، الجزائر
saidi_mh27@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2004/6/1

01
2004

الإحالة إلى المقال:
* محمد سعيدي: بناء الإنسان في الفكر الصوفي الإسلامي، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الأول، يونيو 2004، ص 149-157.

BY-NC-ND

http://annales.univ-mosta.dz

***

مجلة حوليات التراث، العدد 1، 2004، ص 149 - 157
ISSN 1112-5020

بناء الإنسان في الفكر الصوفي الإسلامي

محمد سعيدي
جامعة مستغانم، الجزائر

الملخص:

لقد كان الإنسان هو مدار الأدب الصوفي عبر العصور، وهو محور اهتمام الصوفية في شتي مذاهبهم مدارسهم. والصوفية لما يقصدون الله بمناجاتهم وبكائهم وتبتلاتهم إنما يرمون من وراء ذلك إلى حكمة أبديّة خالدة هي بناء إنسان رساليّ، له رسالة مؤدّاة في الوجود تفرده عن بقية المخلوقات. فيَعلُوَ عن سفاسف المادة إلى قدسيّة الرّوح، ومن ثمّ يغدو خليفة الله في الكون يعبده عن حبّ، ويضحى فاعلا حضاريا، يجني بنو جنسه من حوله ثمرات هذا الحب. وهكذا كان الأدب الصوفي تصويرا لهذه الرسالة. والمداخلة تحاول التطرق، ولو باقتضاب، إلى حيثيات هذه الرّسالة وتجلياتها.

الكلمات الدالة:

التصوف، الحب الإلهي، الروح، الحكمة، المقامات.

Human building in mystic thought

Mohamed Saidi
University of Mostaganem, Algeria

Abstract:

Man has been the orbit of Sufi literature through the ages, and it is the focus of Sufism's interest in all their schools of thought. Sufis when they mean to God through their chatting, weeping, and petitions, they only throw from behind that to eternal wisdom, which is the construction of a missionary person, who has a mission that leads to existence that distinguishes him from other creatures. He transcends the depravity of matter to the sanctity of the soul, and then becomes the successor of God in the universe who worships him out of love, and becomes a civilized actor, whose people around him reap the fruits of this love. Thus, Sufi literature was a representation of this message. The intervention attempts to address, albeit briefly, the merits and appearances of this message.

تاريخ النشر: 2004/6/1
saidi_mh27@yahoo.fr
© جامعة مستغانم، الجزائر 2004

Keywords:
Sufism, Divine love, spirit, wisdom, Maqamat.

غير مجد في هذا البحث الموجز التطرق إلى تعاريف التصوف وتتبع مفاهيمه، فهي كثيرة ومتشعبة وقد تتشعب بتشعب المدارس الصوفية وتتعدد بتعدد الرجال الصوفية في المدرسة الواحدة وقد استقلت بحوث ضافية بهذه المهمة[1]. ولكن تمت مقدمات لابد منها أضعها بين يدي القارئ ونحن بصدد تبيان تجليات بناء الإنسان في المنظومة الصوفية:

1 - إن نفرا من الأدباء، والشعراء منهم بصفة أخص، حسبوا التصوف تمسكا بالرموز واستعارة لأسماء وألقاب كبار الصوفية فراحوا يحشدونها تباعا وهم لا يزيدون أن يلتحفوا مسوحا من الثقافة الصوفية الإسلامية لا غير، ولا يعيشون تجارب ولا يتذوقون وجدا أو بتعبير آخر فإنهم يميلون إلى استثمار المعجم الصوفي ولا يتجاوزونه، فتغدو صوفيتهم مصطنعة وذابلة غير ذات إشعاع. وكثيرا ما تتجرد تلك المضامين الصوفية الحقة عند هؤلاء الشعراء من مدلولها الصوفي ذي المنبت الإسلامي المثقل بالرموز والظلال الإسلامية.

فليس من التصوف في شيء تلك الكتابات الذاتية والتهويمات الوجدانية التي تطفح بها إبداعات أدبية، شعرية ونثرية معاصرة يكتب أصحابها تحت تأثيرات نفسية مختلفة يستجيبون فيها لذواتهم ولنوازعهم وميولهم.

وأعتقد أن الحكم النقدي الذي أطلق في العصر الحديث على جمع من الشعراء بكونهم "شعراء متصوفين" أو "شعراء ذوي نزعات واتجاهات صوفية"، لا يستند على فيض دراسة ولا يقوم على تحليل موضوعي مستفيض ولم يسلك نهج الاستقراء للإبداعات العربية والإسلامية والموازنة بينها وبين غيرها من الإبداعات العالمية، وهناك "حقيقة هامة لابد للدارسين في حقول الآداب العربية والفلسفية من أن يعرفوها هي أن النقد القديم استثنى التراث الصوفي من الدراسات الفنية ولا تزال هذه النظرة سائدة حتى الآن إلا في القليل النادر"[2].

فنحن بحاجة ماسة إلى دراسات جادة وجديدة تحق الاختلاف بين النقاد حول المصطلحات الأدبية والعلمية والمعرفية بعامة وتنير سبيل الباحثين والدارسين بغية وضع الأمور في نصابها وقوالبها[3]. ففي الكثير من الدراسات النقدية المعاصرة يكتنف مصطلح "أدب التصوف" الكثير من الغموض والإبهام حتى أضحى بعض الدارسين يلصقه عبثا بكل مبدع غارق في ذاتيته هائم في خياله. وإذا كان "التصوف يحلق بجناحين أحدهما الفلسفة والثاني الأدب بل إنه يمكن القول بأن التصوف أقرب إلى الأدب من إلى الفلسفة"[4] فمن الحيف والقصور إذن أن يظل حبيس الأحكام الانطباعية بلا تفسير موضوعي وبلا سبر لأغواره الفكرية والفنية والرمزية ومن الشطط أن يخلط الدارسون والباحثون شعراء صوفيين بآخرين يحسبون على التصوف...

ولنأخذ - على سبيل المثال - الشعر الصوفي والشعر الرومانسي ومدى الاشتباه، إن لم نقل الاضطراب الذي قد يقع فيه غير قليل من النقاد في تفسير التجربة الشعرية وما يلحقها من إبداع شعري صوفي أو رومانسي، كل على حدة، وإلحاقهما بتياريهما أو باتجاهيهما أو بمدرستيهما بسبب ما يحيط هذين الشعرين من تشابه ولاسيما في جانب الصور والأخيلة[5]. ومع ذلك يبقى الشعر الرومانسي هو غير الشعر الصوفي، فالأول استجابة للذات نحو الذات، أما الثاني فهو استجابة للسمو نحو السمو، للذات نحو العلو.

2 - يجب الوقوف موقف الدارسين المحللين أمام تلك الآراء المتناثرة في بطون كتب المستشرقين، ولا نسلم بموضوعيتها بله صحتها، فلقد كان للمستشرقين اليد الطولى في إبداء الكثير من النظريات والآراء النقدية حول تراثنا الإسلامي، ومنه التصوف... آراء أقل ما يقال عنها إنها لا تستند إلى الدراسة الشمولية التي تقوم على المنهج العلمي سبيلا، وعلى الموضوعية وسيلة وكانوا سببا في توجيه الفكر الإسلامي وجهة تتباين والأصول الإسلامية. ولا عجب فقد قام نفر من هؤلاء المستشرقين بتأليف "دائرة المعارف الإسلامية"، وفيها من الآراء والأخطاء ما لا يخفى على دارس منصف وما تزال هذه الآراء تسري عند تلامذتهم من الغربيين

والعرب على حد سواء ممن تأثروا بهم إلى حد النقل الحرفي من كتبهم ومن هؤلاء المستشرقين نجد آربري، جب، مرجيلوت، نيلكوس من إنجلترا، وجولد تسهير من المجر وغيرهم.

3 - غير صحيح تلك المبالغات التي مفادها أن التصوف الإسلامي يستمد أصوله من مؤثرات خارجية، أجنبية عنه ونحن إذ لا تنكر التأثير والتأثر بين الثقافات الإنسانية فإنا - في مجال التصوف - نقف موقف ريبة من هذا الرأي. فالتصوف مقامات "والمقام هو قيام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من المجاهدات والرياضات والعبادات"[6] والصوفي المسلم لم يجاوز في كل مقاماته حدود القرآن وسيرة الرسول (ص)، فمقامات الزهد والحب والتوكل والتوبة والذكر وغيرها تجد في القرآن الكريم والحديث الشريف مرتكزاتها، فهما الاثنان منبتها. وإن رابعة العدوية وهي شهيدة العشق الإلهي كانت أول من نادت في شعرها بحب الله بعيدا عن طمع في جنة أو خوف من نار، ولما تعلن عقيدة الحب في تقربها وتبتلها لله بقولها.

عرفت الهوى مذ عرفت هواك ... وأغلقت قلبي عمن سواك
وقمت أناجيك يا من ترى ... خفايا القلوب ولست أراك
أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

فلم تكن تحتاج في حبها هذا إلى أكثر من آيتين. الأولى، هي قوله تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"[7]. والثانية، هي قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين"[8]. ولنقس على مقام الحب كل المقامات الصوفية

فلا حياد فيها عن القرآن الكريم.

4 - إن الأدب الصوفي على كثرته وثرائه يحتاج اليوم، وأكثر من ذي قبل إلى آليات قراءة ومناقشة وتحليل وغربلة بغية فك رموزه وتصفيته من شوائب علقت به على مر العصور. ذلك أن القراءة المتباينة والمتناقضة للنص الواحد قد جرت ويلات على كبار الصوفية، فالشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي هو شيخ العارفين وإمام الصوفيين عند نفر من النقاد والدارسين. وهو على العكس من ذلك خارج عن جادة الصواب وينعت بأبشع النعوت عند آخرين.

والحلاج كذلك، هو الولي، التقي، النقي، الورع، عند أقوام. وهو نفسه الزنديق الملحد عند أقوام آخرين. والغريب أننا واجدون النص الواحد عند هؤلاء الصوفية الأقطاب يكون محل تفسير وتأويل بغير ضوابط منهجية فتنجر من وراء ذلك أحكام نقدية متباينة[9].

ثانيا، بناء الإنسان: معنى البناء، ورد في لسان العرب لابن منظور: البني نقيض الهدم. بنى البناء، البناء بنيا، وبناء وبنى. وقد تكون البناية في الشرف. يقول الشاعر العربي:

متى يبلغ البنيان تمامه إذا كنت تبنيت وغيرك يهدم

وبنى الرجل: اصطنعه. يقول الشاعر[10]:

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرى وبين رجال

معنى الإنسان عند الصوفية: يذكر الجرجاني تعريفا شاملا للإنسان بقوله: "الإنسان هو الحيوان الناطق. والإنسان الكامل هو الجامع لجميع العوالم الإلهية، والكونية الكلية، والجزئية. وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية، فمن حيث روحه وعقله كتاب عقلي مسمى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ، ومن حيث نفسه كتاب المحو والإثبات، فهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة، التي لا يمسها ولا يدرك أسرارها إلا المطهرون من الحجب الظلمانية. فنسبة العقل الأول إلى العالم الكبير وحقائقه بعينها نسبة الروح الإنساني إلى البدن وقواه، وإن

النفس الكلية قلب العالم الكبير كما أن النفس الناطقة قلب الإنسان، وكذلك يسمى العالم بالإنسان الكبير"[11].

وقد شاع عند المتصوفة مفهوم الإنسان الكامل والمقصود به الرسول (ص). يقول الشيخ الجيلي في كتابه الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، وفي الباب الستين الذي يعنونه "بالإنسان الكامل وأنه محمد (ص) وأنه مقابل للحق والخلق"[12] ويقول "اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوليه إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى الآبدين فاسمه الأصلي الذي هو له محمد وكنيته أبو القاسم ووصفه عبد الله ولقبه شمس الدين..."[13]

ومن هذه المعاني اللغوية للبناء والمفاهيم الصوفية للإنسان، يمكن أن نستخلص أن الإنسان كيان ووجود قابل لأن يصطنع ويبنى لبنة لبنة، وجزءا جزءا. وكما ينمو جسده ذاتيا فإن روحه قابلة للسمو إن هو تعهدها بالرعاية والسقاية شأنها شأن الجسد، سواء بسواء. كما أن محور عملية البناء في الوجود بأكمله هو الإنسان.

ففي الوظائف الثلاثة: الخلافة والعمارة والعبادة يكون الإنسان هو قطب الراحة الذي عليه مدار هذه الوظائف العظمى. إذن ليس غريبا أن يكون أدب الصوفية كله وبلا استثناء منصبا على الإنسان بغية بنائه.

5 - تجليات البناء: إن أهم مرتكز يستند عليه الصوفية في بناء الإنسان هو الروح وتهذيب النفس. فالإنسان روح وجسد متكاملان، إلا أنه لم يكرم إلا بعد النفخ بالروح: "إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين"[14].

وأهم ما يقاس به الإنسان الفرد والجماعة الإنسانية في مساعيها الحضارية هو روحانياتها، وإرثها الروحي ولذلك كان الشاعر العربي يصدر عن رؤية كونية لما قرر هذه الحقيقة قبل قرون فقال[15]:

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وأول ما يسعى إليه الصوفية في أدبهم هو تبيان سبيلهم وإجلاء الغموض الذي قد يكتنف نهجهم فيعرفون التصوف. يقول أحدهم[16]:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا اضطراب كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خاشعا لله مكتئبا على ذنوبك طول الدهر محزونا

إن الأدب الصوفي كله شعر ونثره يتجه هذا الاتجاه، حيث الدعوة إلى الإصلاح والتربية وإعلاء شأن العقل الإنساني إلى أسمى مراتبه حتى امتزاجه بالنقل في أرقى منزلته.

ولما يلتحم الشعر الصوفي بنثره، يتكون لدينا ديوان أدبي طافح بالمبادئ السامقة الرفيعة، التي تعد تفسيرا عمليا للقواعد الإسلامية التي تنبثق من القرآن الكريم والسنة الشريفة. ففي الأبيات السالفة الذكر يتحدد مفهوم التصوف عند أصحابه على أنه تقوى ووفاء وعفة وصفاء وعلم واقتداء...، وما هي إلا خلال بانية تؤسس للأخلاق باعتبارها جوهر الحضارة.

وجماع القول وصفوته، فإن التصوف وما يحتويه من أدب: شعره ونثره، وما يزخر به من ابتهالات وأدعية ومدائح وتوجيهات، ونصائح يعد بحق رافدا من روافد الثقافة الإسلامية في كل أبعادها، الدينية والفنية والأخلاقية والاجتماعية والإنسانية، وغيرها من القيم التي ترمي إلى بناء الإنسان. والأدب الصوفي أدب رسالي، لم يقل أو ينظم لذاته بل لغاية سامية هي إعلاء الإنسان إلى مستوى عقيدته، فيكون فاعلا حضاريا في خلافته لربه وعبادته لخالقه وتعميره لأراضه.

الهوامش:

1 - ينظر على سبيل المثال، د. عبد الرحمان بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى

القرن الثاني، وكالة المطبوعات، ط2، الكويت 1978، ص 5 وما بعدها.
2 - محمد بن عبد الجبار النفري: المواقف والمخاطبات، تح، آرثر أربري، تقديم وتعليق د. عبد القادر محمود، الهيئة المصرية للكتاب، مصر 1985، ص 11.
3 - د. محمد مفتاح: دينامية النص، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت 1990، ص 129.
4 - محمد بن عبد الجبار النفري: المرجع السابق، ص 13.
5 - ينظر، د. محمد مندور: في الميزان الجديد، مؤسسة ابن عبد القادر، ط1، تونس 1988، ص 77 وما بعدها.
6 - د. عبد المنعم الحفني: معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، ط2، بيروت 1987، ص 248.
7 - سورة آل عمران، الآية 31.
8 - سورة المائدة، الآية 54.
9 - ينظر، الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي: ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 2000، ص 35-36.
10 - ينظر، لسان العرب لابن منظور، مادة: بني، ومادة: هدم.
11 - علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت 1985، ص 39-40.
12 - ينظر، الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي: الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، تحقيق أبو عبد الرحمان صلاح بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت 1998، ص 207.
13 - المصدر نفسه، ص 210.
14 - سورة الحجر، الآية 29.
15 - البيتان للشاعر أبي الفتح البستي. ينظر، د. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط4، بيروت 1984، ج3، ص 49.
16 - د. محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، دار غريب، القاهرة، ص 25-26.

References:

* - The Holy Quran.
1 - Al-Ḥafnī, ʻAbd al-Munʻim: Muʻjam al-muṣṭalaḥāt as-ṣufiyya, Dār al-Masīra, 2nd ed., Beirut 1987.
2 - Al-Jilī, ʻAbd al-Karīm: Al-insān al-kāmil, edited by Abū ʻAbd al-Raḥmān ibn ʻAwiḍa, Dār al-Kutub al-ʻIlmiyya, Beirut 1998.

3 - Al-Jurjānī, ʻAlī: Kitāb at-taʻrifāt, Maktabat Lubnān, Beirut 1985.
4 - Al-Nafrī, M. ibn ʻAbd al-Jabbār: Al-mawāqif wa al-mukhāṭabāt, edited by Arthur J. Arberry, Al-Hay'a al-Miṣriyya li al-Kitāb, Cairo 1985.
5 - Badawī, ʻAbd al-Raḥmān: Tārīkh at-taṣawwuf al-islāmī, Wikālat al-Maṭbūʻāt, 2nd ed., Kuwait 1978.
6 - Farroukh, Omar: Tārikh al-adab al-ʻarabī, Dār al-ʻIlm li al-Mālāyīn, 4th ed., Beirut 1984.
7 - Ibn ʻArabī, Muḥyī al-Dīn: Dhakhā'ir al-aʻlāq sharḥ tarjumān al-ashwāq, edited by Khalīl al-Mansūr, Dār al-Kutub al-ʻIlmiyya, Beirut 2000.
9 - Ibn Manẓūr: Lisān al-ʻArab, Dār Ṣādir, Beirut.
9 - Khafajī, M. ʻAbd al-Munʻim: Al-adab fī at-turāth as-ṣūfī, Dār Gharīb, Cairo 1938.
10 - Mandūr, Muḥammed: Fī al-mizān al-jadīd, Mu'assasat ibn Abdelkader, 1st ed., Tunis 1988.
11 - Meftah, Mohamed: Dinamiyyat an-naṣ, Al-Markaz al-Thaqāfi al-ʻArabi, 2nd ed., Beirut 1990.